تحويل القبلة

قال تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } [البقرة: ١٤٢ - ١٤٤].

ما معنى تحويل القبلة:

أي أن النبي أُمر أن يوافق قبلة اليهود في بداية الأمر ويتوجه لبيت المقدس

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي امام الكعبة متجها الى الشمال يستقبل القبلة من الركن اليماني فيكون متوجه النحو الكعبة وفي نفس الوقت نحو بيت المقدس

اما بعد الهجرة الى المدينة فلم يكن يتمكن النبي صلى الله عليه وسلم بالاستقبال استقبال القبلتين معا كما كان يفعل في مكة

ظل صلى الله عليه وسلم على هذا الحال متجهاً إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً؛ أو سبعة عشر شهراً، وإذا كان مستقبلاً لبيت المقدس تكون الكعبة خلفه تماماً.

وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة ، التي هي قبلة إبراهيم ، عليه السلام ، فأجيب إلى ذلك ، وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق.

ولعل هذه الحادثة بما فيها من ربط بين المسجدين وكان المسجد الأقصى أولا؛ لأنه المكان الذي عرج منه النبي صلى الله عليه وسلم وعاد إليه، ولعل هذا كان في الفترة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يوافق اليهود كسدل شعره ثم أمر بالمخالفة وفرق شعره وكما حدث هنا من موافقة قبلة اليهود ثم استقرار الأمر على مخالفتهم وفيه إلماح إلى نسخ شريعتهم بالإسلام كما نسخت قبلتهم بقبلتنا.

حكمة النسخ:

١ - مراعاة مصالح العباد بتشريع ما هو أنفع لهم في دينهم ودنياهم.

فالله - عز وجل - إذا نسخ حكما دل على أن الناسخ أنفع للعباد، والأول أيضا كان نافعا ولكنه منفعته كانت مؤقتة، فلما زالت انتقلنا إلى الثاني لمنفعته الدائمة المستمرة.

٢ – التدرج في التشريع فالخمر على سبيل المثال لمّا كان شرب الخمر في الجاهلية عند العرب عادة متأصلة فيهم، وكان يصعب على الواحد منهم ترك شربها، فقد تدرجت أحكام الخمر من الذمِّ لها، والتحذير منها، إلى التحريم القاطع والنهائي لها، فعن عمرو بن شرحبيل رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (اللهمَّ بيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافِياً، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة} :يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) {البقرة: ٢١٩)، قال: فدُعِي عمر رضي الله عنه فقُرِئتْ عليه فقال: اللهمَّ بيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ){النساء: ٤٣)، فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاةَ نادَى لا يقْرَبَنَّ الصلاة سكران، فدُعِي عمر رضي الله عنه فقُرِئَتْ عليه فقال: اللهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بياناً شافياً، فنزلت الآيةُ التي في المائدَة} :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ){المائدة:٩٠) إلى قوله} :فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ){المائدة:٩١)، فدُعِي عمرُ رضي الله عنه فقُرِئَتْ عليه فلما بلغ} :فَهَلْ أَنْتُم مُّنْتَهُونَ {قال: فقال عمر :انتَهَينا، انتهيْنا). رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني.

٣ - اختبار المكلفين باستعدادهم لقبول التحول من حكم إلى آخر ورضاهم بذلك. حتى وإن كانت العلة تعبدية.

قال في "الشرح" (ص/٤٣٣): (وذلك من أشد ما يكون، فبعض الناس لا يرضى أن تتحول الأحكام أحيانًا كذا وأحيانًا كذا، ولهذا لما حولت القبلة ارتد بعض الناس، كما قال تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ) [البقرة: ١٤٣].

فالمهم أن في النسخ اختبارًا للمكلفين هل يرضون بالأحكام ويتقبلون وإذا قيل لهم هذا حلال فعلوه، وإذا قيل هذا حرام أمسكوا عنه، وإذا قيل هذا واجب التزموا به وقاموا به، وهذا لا شك أنه من أكبر الحكم.

٤ - اختبار المكلفين بقيامهم بوظيفة الشكر إذا كان النسخ إلى أخف ووظيفة الصبر إذا كان النسخ إلى أثقل.

قال في "الشرح" (ص/٤٣٣): (النسخ قد يكون إلى أخف أو إلى أثقل أو إلى مساوٍ ، وهذه ثلاثة أقسام " فلو رأينا نسخ تحريم الخمر لوجدناه إلى أثقل، ولو نظرنا إلى المصابرة لوجدناها إلى أخف، ولو نظرنا إلى الصوم وجدناه إلى أثقل، كان بالأول مخيرًا بين الصوم والفداء ثم تعين الصوم، هذا من جهة أخف: من جهة أنه إذا نام أو صلى العشاء وجب عليه الإمساك، ثم رخص لهم إلى طلوع الفجر فهو من هذه الجهة أخف، واستقبال القبلة مساو لأن الإنسان من حيث العمل والتكليف: لا يفرق بين أن يستقبل الكعبة أو بيت المقدس. إذًا اختبار المكلفين بقيامهم بوظيفة الشكر إذا كان النسخ إلى أخف مثل آية المصابرة، لما أوجب الله على المسلمين أن يقاوم الواحد منهم عشرة كان في هذا صعوبة فلما تحول الحكم إلى أن يقابل الواحد اثنين مع زيادة العدد صار في هذا تخفيف.

إذًا فعلى الإنسان أن يشكر الله على هذه النعمة فإذا كان النسخ إلى أثقل فعليه أن يصبر وأن يقول سمعنا وأطعنا، لا يكون متبعًا لهواه: إذا جاءه الحكم موافقًا له قبل وإذا كان مخالفًا لا يقبل، فالمؤمن هو الذي يتبع الهدى لا الهوى: أما أن يتبع الهوى إن كان شيئًا خفيفًا قبله، وإن كان شيئاً ثقيلاً تركه، فهذا ليس بمؤمن حقيقة (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنّ) [المؤمنون: ٧١].

<u>عَوْدٌ على بَدْء:</u>

متى كان تحويل القبلة:

قيل في نصف رجب سنة ٢ هجرية وهو منقول عن ابن عباس وقيل في نصف شعبان وقيل في جمادى الآخرة والأول هو قول الجمهور وهو الأقوى.

إن لتحويل القبلة أبعادًا كثيرة، منها: السياسي، والعسكري، والديني البحت، والتاريخي.

فبُعدها السياسي: أنها جعلت الجزيرة العربية بؤرة الأحداث.

وبعدها التاريخي: أنها ربطت هذا العالم بالإرث العربي لإبراهيم (عليه الصلاة والسلام).

وبعدها العسكري: أنها مهّدت لفتح مكة وإنهاء الوضع الشاذ في المسجد الحرام؛ حيث أصبح مركز التوحيد مركزًا لعبادة الأصنام.

وبعدها الديني: أنها ربطت القلب بالحنيفية، وميزت الأمة الإسلامية عن غيرها، والعبادة في الإسلام عن العبادة في بقية الأديان.

العبر والعظات من تحويل القبلة:

أولا – أن الأصل في العبادات التوقيف: ويتجلى ذلك في انتظار النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته لنزول الوحي بالأمر بالتحول للكعبة فليتق الله أناسا يأخذون دينهم وتعبدهم وأذكارهم من أفواه بعض المشايخ غير المعصومين.

حم عن ابن عباس: (وقد (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهرا ثم صرف إلى الكعبة).

خ عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ المَقْدِسِ، سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [البقرة: ١٤٤]، فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ "، وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ، وَهُمُ اليَهُودُ: {مَا وَلَّاهُمْ} [البقرة: ١٤٢] عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، قُلْ لِلَّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ مَا صَلَّى، فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الأَنْصَارِ فِي صَلاَةِ العَصْرِ نَحْوَ بَيْتِ المَقْدِسِ، فَقَالَ: هُوَ يَشْهَدُ: أَنَّهُ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ تَوَجَّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ، فَتَحَرَّفَ القَوْمُ، حَتَّى تَوَجَّهُوا نَحْوَ الكَعْبَةِ.

الثاني - التوجه إلى الله عند الشدائد (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها)

الثالث – أن الأعمال من الإيمان . وبيان خطأ المرجئة في إخراج العمل من الإيمان كما سبق التنبيبه على ذلك.

اليهود شككوا في صلاة المسلمين القديمة نحو بيت المقدس ، ومن ثم أعلنوا أن المسلمين الذين ماتوا قبل تحويل القبلة دخلوا النار؛ لأنهم صلوا إلى القبلة الفاسدة ! فيرد الله قائلاً : (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنّ اللّهَ بِالنّاسِ لَرَءُوفٌ رّحِيمٌ) [: البقرة -١٤٣] .

الرابع : {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: ٤]

لقد شكك اليهود في صدق النبي . صلى الله عليه وسلم . والدولة الإسلامية في طور الإنشاء والتأسيس . فقالوا :".. (مَا وَلاّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا) [البقرة - ١٤٢] ، لقد اشتاق الرجل إلى مولده ! ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ، ما صرفهم عن قبلتهم التى كانوا عليها .. إن كانت القبلة الأولى حقا فقد تركها ،وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل .." وهنا ندرك أصالة العدوان اليهود للإسلام والمسلمين .. فقد شنوا حرباً إعلامية ضارية في

أعقاب حدث تحويل القبلة . ولقد فُتن ضعاف الإيمان كما فُتن إخوانهم في حادث الإسراء والمعراج .. وإن المتأمل لآيات تحويل القبلة؛ وهي ترد شبهات اليهود؛ يتبين له مدى ضراوة الحرب الإعلامية والفكرية التي شنها اليهود ..

قال تعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [سورة: البقرة - الأية: ١٤٢] ..

وهكذا خاب وخسر من جرى يلهث في عصرنا خلف اليهود . وخاب وخسر من تمسح باليهود في تطبيع وتقريب ..

الخامس : في وسطية الأمة :

حم عن أبي سعيد الخدري أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه، فيقال لهم هل بلغكم هذا ؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلغت قومك ؟ فيقول: نعم. فيقال [له] من يشهد لك ؟ فيقول: محمد وأمته. فيدعى بمحمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم ؟ فيقولون: جاءنا نبينا صلى الله عليه وسلم فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا " فذلك قوله عز وجل) :﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال: " عدلا ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾]البقرة: ١٤٣." [

نعم ، أمة وسطاً : مجانبة للغلو والتقصير ، لم تغل غلو النصارى في أنبيائهم ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم ، وقد رُوي عن النبي . صلى الله عليه وسلم . :" خير الأمور أوسطها".. فهي و سط في الاعتقاد والتصور، وسط في العلاقات والارتباطات ، وسط في أنظمتها ونظمها وتشريعاتها وكذلك في قبلتها فالكعبة مركز الأرض ..

السادس: سنة الله الابتلاء لخلقه للتمييز وعلو الدرجات وكما قيل من المحن تأتي المنح (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىَ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ) [البقرة - ١٤٣] . إذ المؤمن . لاسيما وهو يمارس وظيفته في الدعوة إلى الله . لابد أن يبتلى ، ولابد أن يُمتحن (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ) [العنكبوت - ٢] .. ولقد ابتلي المسلمون الأوائل بهذا الحدث أيما ابتلاء . فثبتوا . رضي الله عنهم . ما ضرتهم حرب اليهود الإعلامية .. ليضرب الصحابة . رضوان الله عليهم . القدوة والأسوة في مواجهة الابتلاء ، ولقد علمونا . رضي الله عنهم . الصبر على ألوان ومجالات الابتلاء ، بديةً بابتلاء السجن والحصار والتعذيب في رمضاء مكة ، وحتى الصبر على الترسانة الإعلامية اليهودية ..

السابع : في سرعة الاستجابة :

كم كان هؤلاء الصحابة . رضي الله عنه . في قمة التشريف لهذه الدعوة ؛ عندما جاءهم خبر تحويل القبلة ..انظر في صحيح البخاري عن البراء : " أن النبي . صلى الله عليه وسلم . صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا . أو سبعة عشر شهرا . ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وإنه صلى أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى مع النبي . صلى الله عليه وسلم . فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال أشهد بالله، لقد صليت مع النبي . صلى الله عليه وسلم . قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت" لقد تحولوا وهو في هيئة الركوع من قبلة بيت المقدس إلى اتجاه البيت الحرام .. لقد علمونا . رضي الله عنهم . كيف نستقبل أوامر وتعاليم الإسلام ..

بهذه الثقة في النهج وبهذه الثقة في القائد قادوا وسادوا وساسوا الدنيا ..

يا قوم فما بالنا نحينا أوامر الإسلام وتعاليم القرآن، وشككنا في أحكام الشريعة .. وتنسمنا فساء الغرب ، ونقبنا في مزابل العولمة .. !

إلى متى هذه الجفوة والفجوة بين المسلمين ومنهجهم ؟ وإلى متى نستجيب إلى كل أشباه الحلول ، ونرفض الحل الإسلامي ؟ وإلى متى نستجيب إلى كل فكر إلى الفكر الإسلامي ؟

فلنتحول كما تحول الصحابة في حادث تحويل القبلة . نتحول بكل قوة وثقة ورشاقة إلى منهج الإسلام بكلياته وجزئياته ، كما تحول الغر الميامين وهم ركوع.